الى الأستاذ أحمد أمين :

الضعف فى اللغة العربية

للأستاذ محمد سعيد العريان

تناول الأستاذ الجليل أحمد أمين فى العدد ٢٠٨ من الرسالة موضوع الضعف فى اللغة العربية ، بعد ما تناوله عديد من الصحف والمجلات فى هذه الأيام ؛ وما كان لى أن أعنى بمناقشة ما قال الكاتبون فى هذا الموضوع والادلاء برأيى فيه لولا اعتدادى بمكانة الأستاذ الكبير وما لآرائه من خطر وقيمة ، فأنا لهذا أكتب إليه أستدرك أشياء وأنبه إلى أشياء لعل لها أثراً فى توجيه البحث ينتهى إلى الغاية التى يريد ونريد

وأحب قبل أن أمضى فيما أنا بسبيله أن أؤكد لأستاذى ما لا بد من توكيده : إننى فيما أكتب إليه بعيد عما يسميه النزاع الشخصى أو التعصب الطائفى ، فاذا رأى فى مقالى ما يحملنى إلى طائفة من القائمين على شئون اللغة العربيه فليتبرع لى بحسن الظن ، وإن رأى منى انحرافاً عن الصواب فلينسبنى الى الخطأ فى الاجتهاد ، لا الى الهوى والتعصب

* * *

وبعد فماذا يعنى الأستاذ بالضعف فى اللغة العربية ؟ أيراه يعنى أن اللغة العربية فى هذه الحقبة من تاريخها الأدبى سائرة إلى الضعف ؟ أم هو يعنى ضعفها على ألسنة تلاميذ المدارس وطلاب الجامعة وناشئة المتأدبين من كتاب هذا العهد ؟

هذا سؤال أحسب الجواب عنه صريحا محدداً فى مقال الأستاذ ؛ فما من شك فى أن اللغة العربية فى هذا العهد خير منها منذ ستين عاماً وقبل ستين عاماً ، وإن لم تبلغ بعدُ الهدف الذى ترمى إليه . وأما ضعفها فى ألسنة طلاب المدارس وخريجى الجامعة وناشئة المتأدبين ، فأمر لا شك فيه كذلك ولا يحتاج إلى برهان

وإذا تحدد موضوع البحث على هذا الوجه فان علينا مناقشة الأسباب التى يرجع إليها هذا الضعف فى اللغة العربية . وأرى الأستاذ الجليل يرجعها إلى أمور ثلاثة تتفرع فى النهاية إلى ست مسائل : هى طبيعة اللغة نفسها ، والمعلم ، وبرامج التعليم ، والامتحانات ، والتفتيش ، والمكتبة العربية . وسأقصر حديثى الآن على بعض هذه المسائل دون سائرها ؛ إذ هى عندى أجدر بالعناية وأحق بالنظر . وأولى هذه المسائل هو المعلم ، وأرانى أشارك الأستاذ فى قوله : « إن معلم اللغة العربية فى المدارس على اختلاف أنواعها عليه أكبر واجب وأخطر تبعة ، وبمقدار قوته أو ضعفه تتكون — إلى حد كبير — عقلية الأمة . . . » ولكنى مع ذلك لا أشاطره الرأى بأن جزءاً كبيراً من ضعف اللغة يرجع إلى المعلمين . فما المعلمون فى مدارسنا — وأنا واحد منهم — إلا أدوات عاملة بغير إرادة ، ليس لهم حرية فى العمل ولا خيرة فى الطريقة ، ولا فكرة فى التنفيذ ؛ وإنما يشرع لهم الشارع فى وزارة المعارف وعليهم الطاعة العمياء والارادة الخرساء . قد يكون عيباً فى المعلم أن ينزل عن رأيه بهذا الهوان ؛ ولكنه يريد أن يعيش ، ومن ورائه الفتش ، والمفتش الأول ، والمراقب ، والوزير ؛ كل هؤلاء عليه عيون لواحظ ، ليس عليهم أن يوجهوه أو يروا له الرأى الصالح بمقدار ما عليهم أن يحصوا عليه مخالفاته لما أرادت الوزارة من الخطة والمنهج والنظام . . .

وأرانى وقد بينت للأستاذ موقف المعلم ومكانته فى المدارس المصرية ، مسوقاً إلى أن أعتب عليه أن ينال معلمى اللغة العربية ودارَ العلوم بما يشبه أن يكون مصدُره فكرةً قديمة مستقرة فى موضعها من فكرة الكاتب الجليل لا تتصل بموضوع البحث من قريب أو بعيد ! وإلا فأين هذا الموضوع من دعواه بأن خريج دار العلوم أصبح لا يحذق الأدب القديم ولا الأدب الحديث ، ولا يستطيع تغذية الشعب بالأدب الذى هو فى حاجة إليه . . . ؟

إننا هنا نتحدث عن ضعف اللغة العربية فى المدارس لا ضعفها فى الأدب العام الذى يغذى الشعب ويساير النهضة ؛ ولو كان هذا هو الموضوع لاستطاع أن يجد البراهين فى كل ما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء منذ نيف وستين عاماً ، وكلها شاهدة بما لدار العلوم من أثر على اللغة فى هذا القطر وفى الأقطار العربية عامة ، وما أرى الأستاذ يستدرك فيعترف بأن من خريجى دار العلوم أفذاذاً نابغين يصح أن يكونوا المثل الذى ينشده إلا مجاملة لطائفة من أصدقائه وزملائه فى الجامعة ، وما تغير هذه المجاملة

شيئاً من وجه الرأى ، وما تغير شيئاً من الحقيقة التى يلحظها كل من يقرأ مقالة الأستاذ الكبير ، وهى أنه خرج من البحث فى كفاية خريجى دار العلوم باعتبارهم معلمين ، إلى البحث فى كفايتهم باعتبارهم كتاباً وأدباء ومنشئين أثروا تأثيرهم فى الأدب العام أو لم يؤثروا ، وما هذا مصدر البحث ولا مورده ...

وما أريد أن أطيل فى هذا العتب ، فان هنا (النقطة الشائكة) التى كان همّ الأستاذ أن يتحاشاها ، وكان هى لولا (الواعية الباطنة) التى أقحمتها فى غير موضعها من مقال الأستاذ الجليل

وأعود إلى ما كنا فيه فأقول إن الأستاذ لم يبلغ إلى الحقيقة فى قوله : إن دار العلوم وغيرها لم تستطع أن تخرج المعلمين الأكفاء الذين نتطلبهم ونتطلبهم اللغة العربية الأخذ بيدها والنهوض بها ومحاربة الضعف الناشىء فيها . وكان وجه الرأى أن يقول : إن وزارة المعارف لم تترك للمعلمين حرية العمل وحرية الرأى فى المناهج للأخذ بيد اللغة العربية والنهوض بها ومحاربة الضعف الناشىء فيها ؛ وذلك بما قيدتهم من قيود لا تدع لهم الخيرة فى أن يفكروا فى الوسائل ولا فى الغايات التى يجب أن يأخذوا بها الناشئة من طلاب اللغة العربية ليبلغوا بهم حيث يريدون

* * *

ولمنهج التعليم أكبر الأثر بعد ذلك فيما آلت إليه حال اللغة العربية فى المدارس المصرية ، وعلى ألسنة الناشئة من المتأدبين ؛ ولا أعنى بهذا منهج اللغة العربية وحده ، فهذا جزء من كل له أثره فى الثقافة العامة التى توجّه التلميذ وجهته ، وتُعدّه لأن يكون ما يكون فى غده : رجلاً لأمته يحرص على قوميّته وتراث أهله ومقوّمات وجوده ، أو واحداً كبعض من نعرف من شبابنا ، لا يعرف له قومية وليس فيه حِفاظ على ماخلّف الآباء ، ويُضيّع فيما يُضيع من تراث الأجيال لغةَ قومه ودين قومه . والدين واللغة فى تاريخ هذه الأمة شىء واحد ، يقوم كل منهما من الآخر مقام الجزء مما يكمّله ، وهما معاً عماد القومية العربية المسلمة التى نريد أن نطبع عليها ناشئة الغد .

هذا نقد عام لبرامج التعليم فى مدارسنا لا أحاول تفصيله ، وحسبى فى هذا السبيل أن أنبه أستاذى الجليل إلى أن نظر الطلبة فى صميم نفوسهم إلى أن اللغة العربية مادة ثانوية وإن وضعت فى المناهج فى أولها — ليس من عمل المعلم بقدر ماهو من تأثير المنهج الذى يفرض فيما يفرض على التلميذ فى المدرسة الابتدائية برنامجاً طويلاً عميقاً فى اللغة الانجليزية قبل أن يستقيم لسانه فى نطق جملة عربية واحدة . كما أن ضعف الثقافة فى الجمهور فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامى والأدب العربى والمعلومات العامة التى تتصل بذلك — ليس مسئولاً عنه معلمو اللغة العربية ، لأن ذلك ليس داخلاً فى برنامج ما يدرسون لتلاميذهم ، وليسوا هم القائمين على تدريس التاريخ الاسلامى ، ولا شىء مما يتصل به من المعلومات العامة فى مرحلة من مراحل التعليم ؛ وقد كان ذلك إليهم منذ سنين ، وكانت حال اللغة يومئذ خيراً منها فى هذه الأيام

وهناك أمر ذو خطر يتصل بمنهج اللغة العربية ذاتها ، ولا مناص من الالتفات إليه ؛ ذلك هو ترتيب المنهج وتوزيعه على سنى الدراسة المختلفة ، ولا أعنى هنا الكم والمقدار ، إنما أعنى الكيف والطريقة .

إن الأستاذ أحمد أمين قد قصر نقده للمناهج على المادة دون الموضوع ؛ فراح يتهم قواعد النحو والبلاغة فى مادتها وتقسيمها دون نظر إلى مؤداها وغايتها وموضوعها من مراحل التعليم

إن الآفة والعلة والداء ليست فى قواعد البلاغة ومصطلحات النحو وفصول الأدب ؛ فما نحن بمسئولين أن نجعل هذه المقاييس اللغوية تسلية وملهاة يتلهى بها التلميذ فى وقت بطالته وفراغه كأنها قصة أو فكاهة ، فما هذا موضعها من العلم ولا مكانها ؛ ولكن العلة والآفة والداء أننا نعلم التلميذ قواعد اللغة قبل أن يعرف شيئاً من اللغة أو يقرأ منها قدراً صالحاً ليعينه على الفهم والمحاكاة ؛ وأننا ندرس له البلاغة قبل أن نقدم له النماذج الكثيرة من الكلام البليغ التى تنبه فيه ملكة النقد قبل أن نعطيه قواعد النقد ومقاييس البيان الرفيع ، وأننا نجرّعه مصطلحات الأدب وفنونه قبل أن يتذوق الأدب نفسه . هنا العلة فلنلتمس لها الدواء قبل أن نفكر فى حلاوته أو مرارته .

إن قواعد النحو ، ومصطلحات الأدب ، وفنون البلاغة ، كفلسفة القصة من القصة : لا ينبغى التفكير فيها والمعاناة فى استخراجها قبل الفراغ من القصة نفسها ، والحكم على

الشيء فرع من تصوره ، كما يقولون ؛ فصوروا للطفل آداب لغته قبل أن يعطوه هذه المقاييس الصماء ليزن بها ما ليس في يده .

إن هذه المناهج بعيدة من الطبيعة بُعد الغاية التي وصلنا إليها من الغاية التي إليها نقصد ؛ وإنما ينبغي حين نريد تعليم اللغة العربية على منهاج صحيح أن نحاكي الطبيعة الخالقة في منهاجها الواضح ؛ والطبيعة قد أملت علينا الطريقة التي يجب أن نأخذ بها كل ناشئ يتلقى لغة من اللغات ، ففرضت عليه أن يمر في أطوار التعليم بثلاث مراحل : السماع والتلقين ، ثم المحاكاة والتقليد ، ثم الابتكار والانشاء . فان الطفل يولد وله صوت وسمع وليس له بيان ، ثم يأخذ في محاكاة الأصوات التي يسمعها ؛ فاذا تكونت له أعضاء النطق أخذ يلقف الكلمات مما يسمع من أهله فيرددها كما سمعها بلهجتها ونبرها ، ثم يتدرج من ذلك إلى التعبير عن حاجاته باللسان الذي يتحدث به مَن حوله ؛ على أن قاموسه في ذلك لا يعدو كلمات قليلة على مقدار وعيه وحفظه وقدرته على التقليد ؛ وكلما تقدمت به السن واتسعت الدائرة التي يضطرب فيها ويستمع إليها ويلقف منها زاد محصوله اللغوي ؛ ثم لا يلبث أن يلمّ بكل معنى وبكل لفظ وبكل عبارة ، فيتحدث كما يتحدث الناس ، لا يعجزه أن يفهمهم ولا يعجزون ، وحينئذ يتم تمامه اللغوي في اللغة التي يتحدث بها أهله .

هذه هي الطبيعة اللهمة وطريقتها في إعداد الطفل إلى تلقي اللغة والفهم عنها والابانة بها . فأين طرائقنا من هذه الطريقة التي فرضتها الطبيعة على كل إنسان ناطق . . . ؟

وعلى هذا المنهج الطبيعي نفسه تخرج الخالدون من أدباء هذه الأمة ، فبانوا ما بلغوا وخلفوا لنا هذا التراث الباقي على الزمن من الشعر والأدب . وطريقة الأخذ عن الرواة هي طريقة الطبيعة نفسها ، وهي هي كانت كل ما يؤهل الأديب أو الشاعر إلى التبريز في الأدب والاجادة فيه . وما كان الأصمعي وأبو عبيدة والقالي وغيرهم ليعلموا تلاميذهم أول ما يعلمونهم — المحادثة والانشاء والقواعد والتطبيق ، إنما كانت دروسهم في حلقات الدرس والرواية هي هذه الأمالي الباقية من جيد الشعر والخطب والأمثال والقصص ، أما النحو والصرف وقواعد البلاغة فكانت شيئاً من وراء ذلك لا ينظر إليه إلا عند الحاجة ، وهي اليوم عندنا أول الطريق وآخره

وأمامنا الأمثال في كل جيل وفي كل عصر من عصور العربية ترشدنا إلى الطريق التي يجب أن نسلكها في تعليم العربية ، ولكننا نغمض عنها أعيننا ونضرب في البيداء ، ومع ذلك ما ننفك نسأل أنفسنا :

« أين ومتى تبلغ الغاية ؟ »

وهل بلغ البارودي وحافظ وأضرابهما ذلك المبلغ من الشعر والأدب بالقواعد والتطبيق ومعالجة الانشاء ، أو بالاطلاع والرواية والحفظ من مأثور النظم والنثر ؟

ينبغي أن نعلم العربية على الطريقة التي يتعلم بها الطفل أن يتكلم ؛ فلتكن دروس العربية الأولى أن نتحدث إلى التلميذ ثم نسأله أن يتحدث ، وأن نحمله على المطالعة ثم نطلب إليه أن يكتب ، وأن نقدم له الغذاء من متن هذه اللغة ومن أساليبها في أقاصيص صغيرة مسلية نقصها عليه بلسان عربي سلس الأداء واضح النبرات مفهوم المعنى ، ثم نطلب إليه أن يعيد ما سمع بلغة كالتي تحدثنا بها إليه ولا تخرج عن قاموسه الذي نعرفه كلمة كلمة لأننا نحن الذين أمليناه عليه كلمة كلمة في هذه الأحاديث والقصص التي روينا له ، ولا نفتأ كل يوم نزيد في معجمه اللغوي كلمات وأساليب فيما نتحدث به إليه ؛ فاذا بلغنا به مبلغاً ما بهذه الوسيلة فلنفكر حينئذ في تلقينه قواعد اللغة وموازين الكلام الصحيح لا على أنها قواعد جديدة يجب أن يدرسها ، ولكن على أنها جزء غير مسموع من الكلام الذي سمع ، ونطق غير ملفوظ من الكلام الذي تحدث به . وهنا نقطة يجب ألا تغيب عن أحد من المشتغلين بالتعليم ، هي أن هذا ليس واجب معلم اللغة العربية وحده ، ولكنه واجب عام ينتظم المعلمين جميعاً ؛ وإلا كان عبثاً ما يحاوله معلم العربية ، فما يعالج هو تقويمه من ألسنة التلاميذ بالقدوة والمثال تفسده الرطانة الأعجمية في لسان باقي المعلمين

هذا هو الأمثل بأن يؤدينا إلى الهدف الذي نريده لو أخلص العاملون ، فليجربه من شاء ثم يحدثني عن النتيجة ؛ فانا نفسي قد حاولت هذه الطريقة في بعض الفرق (على غفلة من المفتش وغفلة من المنهج ...) فما أدعو إليها إلا مقتنعاً بها مؤمناً بنتيجتها

* * *

والآن وقد وصلت إلى هذه النقطة من الموضوع ، أراني

مع الأستاذ أحمد أمين فى الحديث عن المكتبة العربية ؛ فلو أننى زعمت له ولنفسى أن عندنا المعلم الكفء الموهوب الذى لا يمل الحديث مع تلاميذه بلسان عربى مبين جذاب ليزودهم بالغذاء المرىء والنموذج الصالح من متن اللغة وأساليبها ، لما وسعنى الزعم بأن عندنا الكتاب الذى يصلح أن يكون لهذا التلميذ أستاذاً فى غيبة أستاذه ؛ يعطيه ما يعطيه المعلم من متن اللغة وأساليبها فى عرض جذاب يحبب إليه مطالعته والتزود منه ثم يحمله من بعد على أن يحرص على المطالعة لتكميل ثقافته ويجعل لها وقتاً من وقته طوال حياته فى زمن التخرج وبعد التخرج

ولو أننى زعمت أن عندنا هذا الكتاب لكذبتنى وزارة المعارف التى لا تعطى تلاميذ مدارسها الابتدائية إلا كتاباً واحداً للمطالعة العربية ألفه مؤلفه فى القرن الماضى ... وما يزال حيث كان ! على حين تعطى هذا التلميذ نفسه بضعة كتب للمطالعة الانجليزية قد تبلغ ستة كتب أو سبعة فى السنة الدراسية ، ثمن الكتاب منها يبلغ ضعف ثمن كتاب المطالعة العربية ؛ وهى دقة بالغة فى تنفيذ سياسة الاقتصاد ..!

على أن هنا حقيقة لا ينكرها أحد ولا يغفل عنها أحد ، هى أن المطالعة عند كل المشغوفين بالمطالعة — عادة لازمة أكثر مما هى وسيلة من وسائل العلم ، فاذا لم يعود الطفل أن يقرأ منذ حداثته فهيهات أن يمكن حمله على المطالعة المثمرة من بعد ؛ وهنا سر انصراف شبابنا عن المطالعة والأدب إلى ذلك اللغو وتلك الدعاوى الفارغة التى تملأ أفواههم عن الأدب والتجديد . ومن ثم يجب أن نبحث أولَ ما نبحث فى نقص المكتبة العربية للأطفال ، ثم من يليهم ، ثم من يليهم ، إلى أن نبلغ الطبقة التى نجد فيها من يقرأ أمثال الأغانى والأمالى وعيون الأخبار والطبرى وغيرها من تراثنا الأدبى الذى لا نجد من يقبل عليه إلا القليل من قراء العربية

وإننى أؤكد للأستاذ أحمد أمين أن المكتبة العربية لم تضعف هذا الضعف لعجز فى المعلمين أو نقص فى كفاية القائمين على شئون اللغة العربية ، ولكن وسائل التخذيل وقلة المكافأة ...

وقد عالجت طائفة غير قليلة من أدباء العربية هذا النقص فى مكتبة الأطفال ، وكان خليقاً أن يبلغوا بها مبلغاً تطمئن إليه ، لولا قلة المكافأة وسوء التقدير ، وأنا نفسى ما أزال أعانى أزمة عنيفة بينى وبين نفسى من جراء محاولة من هذه المحاولات لاصلاح مكتبة الطفل ، صرفتنى عن العمل لغيرها وقطعتنى عن الجو الأدبى الذى كنت أعيش فيه والذى كنت أهيئ نفسى فيه لمنزلة فى الغد هى أجدى علىّ وأنفع ، وجعلتنى غرضاً لسهام اللوم من أصدقائى الذين كانوا يحسنون الظن باستعدادى الأدبى . والأستاذ الزيات صاحب الرسالة أول هؤلاء اللائمين ، مع إعجابه بما أقدم للطفل العربى من أدب سائغ . وهأنذا ما أزال فى المحاولة ، وما زلت أطمع فى أن أبلغ بالقصص المدرسية — التى أصدرها مع زميلين من زملائى — مبلغاً أقتنع فيه بأنى قد أسديت يداً إلى المكتبة العربية وأحسبنى قد سمعت مرة من الأستاذ أحمد أمين ثناءً على عملنا كان خليقاً بأن يحملنى على الثبات ومضاعفة الجهد فى هذه المحاولة ؛ ولكن عملاً كهذا ياسيدى لا يجزئ فيه أن أسمع كلمات الثناء وعبارات التشجيع وأنا أبذل فيه من أعصابى ومن مالى وعمرى ولا مكافأة ولا تعويض . أفيحسب أستاذنا الجليل أن سعيد العريان ومعه مائة مثله من معلمى اللغة العربية فى مدارس الحكومة يستطيعون أن يسدوا هذا النقص فى المكتبة العربية ووزارة المعارف لا تحاول أن تشعرهم من قريب أو بعيد بأن لهم عليها حقاً أكثر من : أحسنتَ وأجدت ولله أنت ... !

أم تحسب أحداً يُقدم على أن يبذل لمثل هذا العمل جنيها لعله أحوج إليه فى بيته ، وهو يعلم أن وزارة المعارف لا تكافئ الكتاب والمؤلفين إلا أن يكونوا مفتشين أو أشباه مفتشين ؛ حتى لو أن معلماً صغيراً (مثلى ... !) أنشأ عملاً خليقاً بأن يُنتفَع به ، أسرع إلى محاكاته واحد من هؤلاء فيكافأ على التقليد ويضيع العمل الجيد على منشئه بلامكافأة ولا تعويض ...؟

ياسيدى ! والله ما كان فى بالى أن أشكو ، ولا أردت أن يكون الحديث عن نفسى ، وليس من طبعى أن أقول : ليتنى وليت الناس ! ولا كان همى أن ألتمس المعاذير المقصر والمجيد ؛ ولكنك رغبت إلى كل ذى رأى أن يدلى برأيه ، فهذا ما دفعنى إلى ذاك ، وأرجو ألا أكون على جيد الطريق فيما كتبت ، أو أن أزايل حسن الظن من نفسك ، ولعل لى عودة قريبة إلى الموضوع والسلام عليك .

(لبنان) محمد سعيد العريان